الفصل الأول

السفينة أمنحوتب

كان الكابتن سامي زكريا يقف أمام النافذة العريضة في غرفة القيادة، يديه خلف ظهره، وعيناه مثبتتان على الظلام السحيق الذي يتلألأ بنجوم بعيدة كأنها مسامير من نور مغروسة في مخمل أسود.

سفينة الفضاء «أمنحوتب» كانت تمخر عباب الفراغ بصمت مهيب. هيكلها الطويل الأنيق، المطلي بلون رمادي فضّي، يشبه سهمًا قديمًا أُطلق منذ آلاف السنين ولم يصل بعد إلى هدفه. في داخلها، كان الهواء نقيًا وباردًا قليلاً، يحمل رائحة المعدن النظيف والأوزون الخفيف، تلك الرائحة التي اعتاد عليها سامي منذ أكثر من عشرين عامًا قضاها بين النجوم.

لم يكن يقود سفينة فضاء عادية. كان يدير، كما قال لنفسه بمرارة خفيفة، «سيركًا متنقلاً».

على متن «أمنحوتب» اجتمع خليط غريب من البشر: عشرات الإعلاميين والمعلقين، فنانون مشهورون في إمبراطوريات الفضاء، علماء ومؤرخون يعرفون إجابات على كل الأسئلة، وفتيات جميلات ماهرات في شؤون الصورة والظهور، وبعض كبار المسؤولين الذين يمثلون عوالم بعيدة. وإلى جانبهم، أطفال إلكترونيون صغار يتحركون بخفة بين الممرات، يحملون أجهزة الاتصالات الليزرية والأقراص البصرية.

كل هؤلاء جاءوا من أجل شيء واحد:

أن يشهدوا، وينقلوا إلى بلايين المشاهدين في مجرة درب التبانة، الرحلة الأخيرة لكوكب الأرض... إلى حضن الشمس.

سامي أدار رأسه ببطء. على الشاشات المحيطة به كانت تظهر صور حية للمنظومة الشمسية المحتضرة. الشمس لم تعد ذلك القرص الذهبي المتوهج الذي حفظته ذاكرة الجنس البشري. كانت الآن قزمًا أبيض صغيرًا، يتلألأ كالماسة الباردة، يشعّ بضوء باهت وحادّ. حولها، كانت الكواكب التسعة ملفوفة في جليد أبدي، صامتة، ميتة.

ابتسم سامي ابتسامة قصيرة بلا فرحة.

«حتى النجوم تموت»، همس.

ثم رفع صوته قليلاً، موجّهًا كلامه إلى الضابط الأول الذي كان يقف خلفه:

ـ هل راجعت المدار الفعلي مع حسابات الكمبيوتر؟

ـ أجل يا كابتن. كل شيء مطابق. نحن نقترب من المنطقة المحددة للهبوط.

سامي أومأ برأسه. لم يعد هناك ما يفعله الآن سوى الانتظار. الانتظار هو العدو الحقيقي في الفضاء، كما كان يقول دائمًا. الانتظار الذي يفتح أبواب الذكريات.

تذكر فجأة صوت والده القديم، ذلك الصوت الخشن الذي كان يروي له وهو طفل صغير حكايات عن كوكب أزرق جميل يدور حول شمس صفراء دافئة. كوكب فيه محيطات ورياح وأشجار وزهور... وكائنات تمشي على رجلين وتحلم.

«هل كان ذلك الكوكب حقيقيًا يا أبي؟»

كان يسأل.

وكان الأب يبتسم ويقول:

«كان حقيقيًا... وهو الذي جاء منه كل أجدادنا».

الآن، بعد آلاف السنين من الهجرة الكبرى، أصبح ذلك الكوكب مجرد أسطورة تُروى في الليالي البعيدة، أو مادة لبرنامج تليفزيوني فضائي.

طرق الباب خلفه.

دخل الضابط الأول وقال بصوت هادئ:

ـ كابتن... المذيعة داليا شهدي تطلبك في حجرة الاجتماعات. تقول إن الأمر هام.

سامي أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما.

داليا شهدي.

الصوت الأشهر في إمبراطوريات الفضاء. الوجه الذي يعرفه بلايين المشاهدين. المرأة التي تستطيع أن تجعل أي حدث، حتى لو كان موت كوكب بأكمله، يبدو كقصيدة مؤثرة تُبثّ على الهواء مباشرة.

ـ قل لها إنني قادم.

عندما خرج من غرفة القيادة، سار في الممر الطويل بخطوات بطيئة. من خلال النوافذ الجانبية كان يرى النجوم تمر ببطء، كأنها تتفرج عليه هو أيضًا.

شعر بثقل غريب في صدره.

ليس خوفًا... ولا حزنًا واضحًا.

شيء أعمق. شيء يشبه الحنين إلى مكان لم يره قط، لكنه يعرفه في عظامه.

فتح باب حجرة الاجتماعات.

وكانت داليا شهدي جالسة هناك، تنتظره.

الفصل الثاني

الشمس البيضاء

جلس سامي في مقعده داخل غرفة القيادة، والضوء الخافت للشاشات ينعكس على وجهه الحادّ. أمامه، على الشاشة المركزية الكبيرة، كانت الشمس تظهر كقرص صغير باهت، أبيض ناصع، لا يشبه شيئًا مما حفظته ذاكرة البشرية عن الشمس القديمة.

كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

حتى النجوم تموت.

بعد بلايين السنين، تواجه الشمس مصيرها المحتوم. منذ ميلادها، كانت كبقية النجوم محيطًا هائلاً متأججًا من غاز الهيدروجين. كانت تشعّ طاقتها المروعة نتيجة تفاعلات نووية يتم خلالها تحويل الهيدروجين إلى هيليوم، ثم إلى عناصر أثقل كالكربون والحديد. واستمرت حياتها في صراع أبدي بين القوة النووية التي تدفعها إلى التمدد، والجاذبية التي تحاول أن تقلّصها على نفسها.

حتى نفد الوقود.

عندما انتهى الهيدروجين، توقف التفاعل النووي في مركزها. أخذت الشمس تولّد حرارتها عن طريق التقلص البطيء، وأصبحت قزمًا أبيض... جرمًا صغيرًا كثيفًا من العناصر الثقيلة، يشعّ ما تبقى من طاقته بتغيير شديد في الفضاء. لونها الآن أبيض ناصع، بارد في جوهره، قاتل في تأثيره.

ومنذ ألفي سنة تقريبًا، بدأ هذا التبريد الطويل البطيء.

أصبحت الكواكب التسعة التي تدور حولها متجمدة ومغطاة تمامًا بالجليد. الأرض... تلك الكرة الزرقاء التي خرج منها الجنس البشري ذات يوم، فقدت كل دفء. المحيطات تحولت إلى صفائح جليدية صامتة، والغلاف الجوي تخلّص من معظم رطوبته، والرياح الثلجية صارت تصفر بين الأطلال المهجورة للمدن القديمة.

سامي أغمض عينيه لحظة.

تذكر صورًا قديمة كان قد رآها في أرشيفات الإمبراطوريات: شمس صفراء دافئة، سماء زرقاء، محيطات تموج بالأمواج، غابات خضراء تمتد بلا نهاية. صور كانت تبدو له في طفولته كحكايات خرافية. الآن، وهو يحدّق في القرص الأبيض الباهت، أدرك أن تلك الحكايات كانت حقيقية... وأنها انتهت.

همس لنفسه:

«كان لابد أن تنتهي الحياة فوق كوكب الأرض بسبب البرودة القارصة».

فتح عينيه من جديد. على الشاشات الجانبية كانت تظهر صور حية للكواكب الأخرى: المريخ كرة حمراء متجمدة، المشتري عملاق غازيّ بارد لا حياة فيه، زحل لا يزال

يحتفظ بحلقاته لكنه يبدو كجثة فضية هائلة. كلها ميتة. كلها تنتظر النهاية نفسها التي تنتظر الأرض.

دخل الضابط الأول بهدوء وقال:

ـ كابتن... الحسابات النهائية جاهزة. المدار الذي حدده الكمبيوتر سيأخذنا إلى مسافة آمنة فوق سطح الأرض خلال اثنتي عشرة ساعة.

سامي أومأ برأسه دون أن يلتفت.

ـ وهل راجعت تأثير الجاذبية الشمسية الجديدة؟

ـ أجل. الشمس أصبحت أصغر وأكثر كثافة، لكن جاذبيتها ما زالت كافية لسحب الأرض ببطء نحوها. المسار اللولبي سيستمر خمسة أسابيع تقريبًا قبل أن تبتلعها.

خمسة أسابيع.

خمسة أسابيع فقط ليشهدوا الربيع الأخير... إن وُجد ربيع أصلاً.

سامي نهض من مقعده وسار نحو النافذة الجانبية. من خلالها كان يرى النجوم البعيدة أكثر سطوعًا مما كانت عليه في أي عالم آخر زاره. كوكبة الدب الأكبر تسطع بقوة عشرة أضعاف، والقمر... القمر الذي كان يومًا رفيق الأرض، اتخذ الآن مدارًا منحرفًا غريبًا، كأنه يهرب من المصير المشترك.

ابتسم ابتسامة قصيرة مرة.

«حتى القمر خانها في النهاية».

سمع صوت خطوات خفيفة خلفه. لم يلتفت. عرف أنها داليا من رائحة عطرها الخفيف الذي يسبقها دائمًا.

قالت بصوتها العميق الهادئ:

ـ كابتن... البرنامج الأول سيبدأ بعد ساعة. هل يمكننا الحصول على صور أوضح للشمس؟

سامي استدار ببطء.

كانت داليا واقفة في المدخل، شعرها الأسود الناعم يتدلى على كتفيها، وعيناها الواسعتان تلمعان في الضوء الخافت. لم تكن تبدو كمذيعة شهيرة في تلك اللحظة، بل كامرأة تنظر إلى شيء أكبر منها.

ـ يمكنكِ الحصول على أي صور تريدينها، قالت سامي بصوت أجش قليلًا.

لكن اعلمي أن الشمس التي ستصورينها... ليست الشمس التي عرفها أجدادنا.

صمتت داليا لحظة، ثم قالت بهدوء:

ـ أعرف.

لهذا جئنا... لنودعها.

سامي نظر إليها طويلاً، ثم عاد ببصره إلى الشاشة المركزية حيث كان القرص الأبيض يتلألأ في الفراغ كجوهرة باردة لا رحمة فيها.

همس، بصوت لا يكاد يُسمع:

«حتى النجوم تموت... ونحن نأتي لنشهد الجنازة».

الفصل الثالث

الهبوط

تحوّلت سفينة الفضاء «أمنحوتب» إلى وضع الاستعداد للهبوط.

بدأ الغلاف الجوي الرقيق والبارد يحتضن هيكلها الخارجي. السحب السميكة الرمادية تموج وتتدافع حولها كأمواج من دخان قديم. على الشاشات، ظهرت الكرة القاتمة وهي تكبر بسرعة، محيطاتها الهائجة رمادية داكنة، وقاراتها مغطاة بطبقة سميكة من الجليد المتسخ.

سامي وقف في غرفة القيادة، يديه ممسكتين بحافة المنصة، وعيناه لا تفارقان الشاشة المركزية.

ـ اتخذوا إجراءات الهبوط في الموقع الذي حدده الكمبيوتر، قال بصوت هادئ صارم.

الضابط الأول ردّ بسرعة:

ـ أجل يا كابتن. المدار محسوب بدقة. سنهبط في السهل المنحدر شمال ما كان يُعرف قديمًا بـ«البحر المتوسط».

السفينة اهتزت اهتزازة خفيفة وهي تخترق الطبقات الأخيرة من الغلاف الجوي. ثم هدأت فجأة.

هبطت.

فتحت الأبواب الآلية ببطء. اندفع الهواء البارد الرطب إلى الداخل كأنه يتنهد بعد آلاف السنين من الصمت. سامي كان أول من نزل.

وضع قدمه على الأرض.

الطين والحصى تهشّما قليلاً تحت حذائه المطاطي. الهواء البارد لسع وجهه ومرّ قشعريرة طويلة في عموده الفقري. رفع رأسه. السماء منخفضة، رمادية، ثقيلة، تحجب أي أثر للشمس البيضاء البعيدة. أمامه امتدت رقعة واسعة من الأرض الداكنة، لا يشوب سوادها إلا بقع متناثرة من الجليد في المنخفضات.

هبّت ريح ضعيفة متقطعة... ثم سكنت.

لم يكن هناك صوت.

لا طيور.

لا حشرات.

لا همس أوراق.

فقط الصمت الثقيل الذي يزن على الأذن كالقطن المبلل.

سامي سار خطوات قليلة ثم توقف. تطلع حوله والرعدة تسري في أوصاله. هذه الأرض... هذه التربة التي يقف عليها الآن، هي التربة التي خرج منها كل أجداده. التربة التي حلم بها وهو طفل، والتي كانت تبدو له يومًا كأسطورة بعيدة.

سمع أصوات الآخرين ينزلون خلفه. الكاميرات بدأت تدور. الأضواء القوية أضاءت فجأة جزءًا من السهل، فبدا أكثر كآبة تحت وهجها الاصطناعي.

داليا شهدي نزلت بخطوات واثقة، مرتدية بدلة فضاء خفيفة أنيقة بلون رمادي فاتح. شعرها الأسود كان مربوطًا بعناية، وعيناها تلمعان بتركيز المذيعة المحترفة. لكنها حين نظرت إلى الأفق الرمادي، توقف تنفسها لحظة.

اقتربت من سامي وهمست، بصوت لا يلتقطه الميكروفون:

ـ إنها... أكثر فراغًا مما تخيلت.

سامي لم يرد فورًا. ظل ينظر إلى الأرض تحت قدميه.

ثم قال بصوت خفيض:

ـ هذا هو موطننا الأول.

وهذا ما تبقى منه.

بدأت الكاميرات تبث مباشرة إلى الأقمار الصناعية القريبة، ومنها إلى شبكات الإمبراطوريات الفضائية كلها. صوت داليا انطلق واضحًا وعميقًا، ذلك الصوت الذي يعرفه بلايين المشاهدين:

ـ يا أيها الذين تشاهدون هذا البرنامج من عوالم كثيرة في مجرة درب التبانة...

هذا هو موطن جنسنا.

كوكب الأرض.

سامي استدار بعيدًا قليلاً، كي لا يظهر وجهه في الكاميرا. شعر بامتعاض يتزايد في أعماقه. كل ما قالته داليا صحيح... ومع ذلك كان يشوبه شيء من الزيف.

ماذا تكون الأرض الآن بالنسبة له؟

أو بالنسبة لداليا؟

أو بالنسبة لمليارات المشاهدين الذين يجلسون في عوالم دافئة بعيدة؟

مجرد قصة.

مناسبة تاريخية شاعرية.

لحظة وداع تُبثّ على الهواء.

لكنه هو... كان يقف على ترابها الحقيقي.

شعر ببرد ينفذ إلى عظامه، ليس من الهواء فقط، بل من شيء أعمق. شيء يشبه الحزن القديم الذي لا اسم له.

رفع عينيه نحو الأفق الرمادي. في مكان ما خلف تلك السحب المنخفضة، كانت الشمس البيضاء تراقبه في صمت، تنتظر أن تكمل ما بدأته منذ ألفي سنة.

همس لنفسه، بصوت لا يسمعه أحد:

«لقد عدنا... في الوقت المناسب تمامًا للوداع».

الفصل الرابع

الأرض الميتة

سار سامي ببطء بعيدًا عن دائرة الأضواء والكاميرات.

خلفه كانت الأصوات تتداخل: صوت داليا العميق وهو يصف للمشاهدين «العظمة التاريخية للحظة»، وضحكات خافتة من بعض الإعلاميين، وصوت أحد الفنانين وهو يطلب زاوية أفضل للتصوير، وهمس المساعدين وهم يضبطون الأجهزة. كل شيء كان منظمًا، احترافيًا، جاهزًا ليُبثّ كحدث أسطوري إلى بلايين الشاشات في مجرة درب التبانة.

أما هو... فكان يبتعد.

خطوته على التربة المتجمدة كانت تصدر صوتًا خافتًا، كأنها تكسر قشرة رقيقة من الزمن. الهواء البارد لسع خديه، ومرّ في رئتيه كإبرة دقيقة. رفع يده ورفع طوق بدلته الفضائية قليلًا، ثم سار أكثر.

السهل أمامه كان واسعًا ومظلمًا. لا أفق واضح، فقط طبقات من الرمادي تمتد حتى تذوب في السحب المنخفضة. هنا وهناك بقع من الجليد المتسخ تلمع باهتًا تحت الضوء الخافت الذي يتسرب من السفينة. أطلال بعيدة ظهرت كظلال مشوهة: جدران منهارة، أعمدة مكسورة، هياكل معدنية صدئة غرقت في التربة حتى صارت جزءًا منها.

توقف سامي أمام ما تبقى من مبنى قديم. الجدران كانت مغطاة بطبقة سميكة من الجليد الأسود، والنوافذ فارغة كعيون ميتة. مدّ يده ولمس الحجر البارد. شعر بالبرودة تنتقل إلى أصابعه، ثم إلى ذراعه، ثم إلى صدره.

همس لنفسه:

«هنا عاش أناس... هنا ضحكوا وبكوا وأحبوا وناموا تحت سماء زرقاء».

لكن السماء الآن رمادية، والأرض صامتة، والناس... ذهبوا منذ آلاف السنين.

سمع خطوات خلفه. التفت. كان أحد الإعلاميين الشباب يقترب، يحمل كاميرا صغيرة محمولة على كتفه، وابتسامة عريضة على وجهه.

ـ كابتن! لو سمحت... نحتاج صورة لك وأنت تنظر إلى الأطلال. شيء درامي... يعبّر عن الحزن الإنساني أمام نهاية الوطن الأم.

سامي نظر إليه لحظة طويلة. الرجل لم يلحظ شيئًا في نظرته. كان ينتظر فقط الموافقة، وكأنه يطلب زاوية إضاءة أفضل.

ـ لا، قال سامي بصوت هادئ.

ـ ليس الآن.

الإعلامي رفع حاجبيه في دهشة خفيفة، ثم ابتسم ابتسامة مهذبة وانسحب. سامي عاد ببصره إلى الأطلال.

شعر بغربة عميقة.

ليس لأنه بعيد عن عالمه، بل لأنه يقف الآن على التربة التي خرج منها جنسه كله... ويشعر كأنه غريب فيها. كأنه زائر متأخر جاء ليشهد جنازة لا يعرف أسماء الموتى فيها.

سار أبعد. ترك السهل المفتوح ودخل ما كان يومًا شارعًا. الأرصفة مكسورة، والبيوت محطمة، والنوافذ مغلقة إلى الأبد. في زاوية ما رأى هيكل سيارة قديمة غارقة في الجليد حتى منتصفها. مدّ يده ومسح طبقة الجليد عن الزجاج الأمامي. لم يرَ شيئًا سوى الظلام الداخلي.

تذكر فجأة صوت والده القديم وهو يروي له عن المدن القديمة: شوارع مزدحمة، أضواء ليلية، أصوات أطفال، رائحة الخبز في الصباح. كان الطفل سامي يغمض عينيه ويتخيل كل ذلك. الآن وهو رجل في منتصف العمر، يقف في المكان نفسه... ولا يجد إلا الصمت.

هبت ريح ضعيفة. حملت معها رائحة غريبة: تراب قديم، جليد، وشيء يشبه الغبار المعدني. سامي أغلق عينيه لحظة واستنشقها بعمق.

شعر بشيء يتحرك في صدره. ليس حزنًا عاديًا. شيء أثقل. شيء يشبه الحنين إلى ذاكرة لم يعشها بنفسه، لكنها تسكن عظامه.

سمع صوت داليا من بعيد. كانت تتحدث إلى الكاميرا بصوتها المعروف:

ـ ... ونحن نقف هنا، على تراب الأرض، نشعر بثقل التاريخ... نشعر بأننا نودع ليس كوكبًا فقط، بل جزءًا من أنفسنا...

كلماتها كانت جميلة. مؤثرة. مصقولة. لكنها بدت له في تلك اللحظة كأنها تُقال عن مكان آخر. عن قصة أخرى.

سامي ابتسم ابتسامة قصيرة مرة.

الإعلام يعرف كيف يصنع الجمال من الموت. يعرف كيف يحوّل النهاية إلى عرض. أما هو... فكان يقف في قلب النهاية، ويشعر فقط بالبرد.

سار أكثر. ابتعد حتى صارت أصوات الطاقم مجرد همس بعيد. توقف في منتصف ما كان يومًا ميدانًا صغيرًا. في الوسط بقايا نافورة جافة، محاطة بتماثيل محطمة. جلس على حافة النافورة الباردة، ووضع يديه على ركبتيه، ونظر إلى السماء الرمادية.

في مكان ما خلف تلك السحب، كانت الشمس البيضاء تراقبه. صغيرة، باردة، قاسية.

همس بصوت لا يكاد يُسمع:

«هل تذكرينني؟

هل تذكرين الأيام التي كنتِ فيها صفراء ودافئة... وكنا نسميكِ أمّ الحياة؟»

لم يجب أحد.

فقط الريح الضعيفة مرت بين الأطلال، كأنها تبحث عن شيء فقدته منذ زمن طويل.

سامي بقي جالسًا هناك وقتًا طويلاً.

شعر بالغربة تزداد، وبالحنين يثقل صدره، وبالتباين الحادّ بين ما يراه الإعلاميون... وما يراه هو.

هم يصورون نهاية كوكب.

أما هو... فكان يودع وطنًا لم يره قط، لكنه يعرفه في دمه.

الفصل الخامس

الربيع المفاجئ

في اليوم الثالث على سطح الأرض، حدث شيء لم يتوقعه أحد.

كان سامي يقف عند حافة السهل المنحدر، يراقب الأفق الرمادي كعادته كل صباح، عندما شعر فجأة بدفء خفيف على خده. لم يكن دفء الشمس البيضاء البعيدة، بل شيء أدق... كأنه تنهيدة خافتة من باطن التربة نفسها.

رفع رأسه. السحب المنخفضة كانت قد انفرجت قليلاً في جهة الشرق، وظهر ضوء أبيض باهت، حادّ، لكنه مختلف عن الأيام السابقة. الهواء لم يعد يلسع الوجه بالحدة نفسها. كان هناك... ليونة غريبة.

سمع صراخًا مكتومًا من جهة السفينة.

التفت. الدكتور ثروت، عالم النبات الذي جاء مع البعثة، كان راكعًا على الأرض، يديه ترتجفان وهو يمسك بشيء أخضر صغير بين أصابعه. حوله تجمع عدد من العلماء والإعلاميين بسرعة.

سامي اقترب ببطء.

ـ انظروا... انظروا! صاح ثروت بصوت مبحوح من الدهشة.

ـ إنه ينبت... ينبت الآن!

كان برعمًا صغيرًا، أخضر باهتًا، قد اخترق طبقة الجليد الرقيقة في بقعة من التربة الداكنة. وإلى جانبه، وآخر، وثالث... كأنها كانت تنتظر إشارة خفية منذ آلاف السنين.

خلال ساعات قليلة، بدأ السهل يتغير.

نباتات رفيعة ظهرت فجأة من الشقوق، ثم أزهار صغيرة بيضاء وصفراء، بعضها لم يرَه أحد من قبل إلا في الأرشيفات القديمة. الأوراق كانت رقيقة، شفافة تقريبًا، كأنها مصنوعة من ضوء بارد. والرائحة... رائحة تراب مبتل وزهور برية، اجتاحت الهواء فجأة، قوية وحية، حتى إن بعض الإعلاميين توقفوا عن التصوير ليتنشقوها بدهشة.

داليا كانت واقفة وسط الكاميرات، صوتها يرتفع الآن بحماس مدروس:

ـ يا أيها المشاهدون في عوالم المجرة... ما تشهدونه الآن ليس مجرد ظاهرة علمية.

إنه الربيع الأخير لكوكب الأرض.

الربيع الذي انتظر آلاف السنين ليأتي... في اللحظة المناسبة تمامًا للوداع.

سامي ابتعد عن الدائرة المضيئة.

سار وحده باتجاه التلال المنخفضة في الغرب. خلفه كانت الأصوات تتلاشى تدريجيًا: دهشة العلماء، أوامر المخرجين، صوت داليا وهي تصف «المعجزة النباتية». أمامه امتدت الأرض التي بدأت تكتسي بلون أخضر خافت، غير منتظم، كأنه رسم مائي باهت على لوحة رمادية.

توقف عند منحدر صغير. جلس على صخرة باردة، ووضع يديه على ركبتيه، ونظر.

الزهور كانت تتفتح أمام عينيه. بعضها كان يفتح بتلاته ببطء مرئي، كأنها تستيقظ من نوم طويل جدًا. الريح الخفيفة حركت الأوراق الرقيقة، فأرسلت همسًا ناعمًا لم يسمعه أحد منذ عصور.

شعر سامي بشيء يتحرك في صدره. ليس فرحًا. وليس حزنًا فقط. شيء أعمق... كأنه يذكره بشيء فقده قبل أن يولد.

همس لنفسه:

«هل كنتنّ تنتظرننا طوال هذا الوقت؟»

مدّ يده ولامس بتلة بيضاء صغيرة. كانت باردة، لكنها ناعمة. انكسرت تحت أصابعه بخفة، وسقطت على التربة.

ابتسم ابتسامة قصيرة مرة.

حتى الجمال هنا... هشّ وقصير العمر.

سمع خطوات خلفه. لم يلتفت. عرف أنها داليا من طريقة مشيها الهادئة.

جلست إلى جانبه على الصخرة دون أن تقول شيئًا في البداية. ظلا صامتين دقيقة كاملة، يراقبان الزهور التي كانت تتفتح ببطء تحت الضوء الأبيض الباهت.

ثم قالت بصوت خفيض، بعيدًا عن أي ميكروفون:

ـ غريب... أليس كذلك؟
أن يأتي الربيع الآن... في اللحظة التي نعرف فيها أن كل شيء سينتهي خلال أسابيع.

سامي أومأ برأسه دون أن ينظر إليها.

ـ ربما لأنه يعرف أن هذه هي فرصته الأخيرة.

صمتت داليا. ثم قالت بهدوء أعمق:

ـ الكاميرات تصوّر كل شيء هناك.
العلماء يقيسون ويحللون.
وأنا... أحاول أن أجد كلمات تليق بهذا.
لكنني أشعر أن أي كلمة سأقولها ستكون... ناقصة.

سامي التفت إليها أخيرًا.

كانت عيناها تلمعان بشيء مختلف عن نظرة المذيعة المحترفة. شيء أقرب إلى الارتباك الإنساني.

ـ اتركِ الكاميرات الآن، قال بصوت أجش قليلًا.

ـ اجلسي هنا... فقط.

ظلا جالسين على الصخرة وقتًا طويلاً.

الربيع الأخير كان ينتشر ببطء حولهما، أخضرًا باهتًا، هشًّا، جميلًا بشكل مؤلم. وفي الأفق البعيد، كانت الشمس البيضاء تراقب في صمت، كأنها تنتظر دورها في النهاية.

سامي شعر للمرة الأولى منذ هبوطه أن الأرض... تتنفس.

ولو لوقت قصير جدًا.

الفصل السادس

المنزل العتيق

في اليوم الرابع، بينما كان الربيع الأخير يتسلل ببطء إلى السهول، ابتعد سامي أكثر من أي يوم مضى.

ترك وراءه صوت الكاميرات وهمس العلماء ودهشة الدكتور ثروت وهو يحصي أنواع الأزهار النادرة. سار باتجاه التلال الغربية، حيث بدأت الأرض ترتفع قليلاً، والأشجار الميتة منذ آلاف السنين تقف كأعمدة سوداء محطمة. تحت قدميه كانت التربة أكثر ليونة الآن، وبعض البقع الخضراء الصغيرة تتكاثر كأنها تتنهد.

بعد ساعة من المشي الهادئ، رأى شيئًا لم يكن يتوقعه.

منزلًا.

كان يقف وحيدًا على منحدر صغير، محاطًا بما تبقى من سور حجري منهار. الجدران رمادية داكنة، السقف مائل ومغطى جزئيًا بالجليد الذائب، والنوافذ فارغة كعيون مفتوحة على الفراغ. لكنه لم يكن أطلالًا كاملة. كان... منزلاً. منزلًا صغيرًا من طابقين، له باب خشبي متصدع، ودرجة حجرية أمام المدخل، وحديقة ضيقة في الخلف بدأت تزهر فجأة بأزهار صفراء صغيرة.

سامي توقف على مسافة عشرين خطوة. شعر بقلبه يتباطأ.

اقترب ببطء. وضع يده على الباب. الخشب كان باردًا ورطبًا، لكنه صمد. دفعه برفق. صرير خافت ملأ الهواء، ثم انفتح الباب على ظلام داخلي ناعم.

دخل.

الرائحة كانت أول ما اصطدمه: تراب قديم، خشب متعفن، وشيء يشبه رائحة الكتب المغلقة منذ زمن طويل. الضوء الأبيض الباهت تسرب من النوافذ المكسورة، فرسم مربعات باهتة على الأرضية الخشبية. الغرفة الأولى كانت واسعة نسبيًا. طاولة في الوسط، كرسيان مقلوبان، رفوف فارغة على الجدران. وفي الزاوية، مدفأة حجرية سوداء من الداخل.

سار بخطوات بطيئة. لمس الطاولة. الغبار التصق بأصابعه. ثم رأى شيئًا على الجدار بجانب المدفأة.

لوحة صغيرة من الخشب، محفورة عليها كلمتان بخط واضح رغم مرور العصور:

شيرين وعادل

توقف سامي أمامها وقتًا طويلاً.

قرأ الاسمين مرة، ومرتين، وثلاثًا. كررهما بصوت خفيض، كأنهما مفتاح لباب مغلق داخل صدره.

شيرين... وعادل.

جلست على الكرسي الوحيد الذي كان لا يزال قائمًا. وضع يديه على ركبتيه، ونظر إلى اللوحة.

بدأ يتخيل.

رأى امرأة شابة ذات شعر أسود طويل، تجلس عند النافذة في صباح دافئ، تخيط ثوبًا أو تقرأ كتابًا. ورأى رجلاً يعود من الخارج، يخلع معطفه، يبتسم لها، يضع يده على كتفها. سمع ضحكًا خافتًا، ورائحة خبز تخرج من المطبخ الصغير في الخلف، وصوت مطر قديم على السقف.

شعر بارتباط غريب، عميق، غير منطقي. كأنه يعرف هذين الاسمين منذ زمن بعيد. كأنه عاش هنا يومًا ما، في جسد آخر، في عصر آخر.

نهض وسار إلى الغرفة المجاورة. كانت غرفة نوم صغيرة. سرير خشبي مكسور في الزاوية، وخزانة مفتوحة فارغة. على الحائط بجانب السرير، نقش آخر أصغر:

أحببتكِ حتى آخر نجمة

سامي لمس الحروف بإصبعه. كانت باردة وناعمة من كثرة ما لمسها الزمن.

جلس على حافة السرير المنهار. أغلق عينيه.

شعر فجأة أن المنزل ليس فارغًا تمامًا. كأن ظلّين خفيفين يجلسان معه في الصمت. ظل امرأة تبتسم بهدوء، وظل رجل ينظر من النافذة إلى الحديقة التي بدأت تزهر من جديد.

همس سامي، بصوت لا يكاد يُسمع:

«هل كنتم تنتظرون أحدًا... طوال هذا الوقت؟»

لم يجب أحد.

فقط الريح دخلت من النافذة المكسورة، حركت الغبار الخفيف على الأرض، وأرسلت رائحة الأزهار الصفراء من الحديقة الخلفية.

سامي فتح عينيه. نظر حوله مرة أخرى.

قرر في تلك اللحظة ألا يخبر أحدًا عن هذا المكان.

لا الكاميرات.

لا داليا.

لا أحد.

سيكون هذا سرّه الخاص. زاويته الهادئة في وسط الرحلة الأخيرة. المكان الذي يستطيع أن يجلس فيه دون أن يُطلب منه أن يبتسم للكاميرا أو يقول شيئًا يليق بالتاريخ.

نهض ببطء. خرج من الباب المتصدع، وأغلقه خلفه بعناية، كأنما يغلق باب غرفة نوم شخص عزيز.

وقف أمام المنزل لحظة أخرى. نظر إلى الاسمين المحفورين فوق العتبة التي كانت يومًا مضيئة.

شيرين... وعادل.

ثم ابتسم ابتسامة قصيرة، حزينة، وصادقة.

وسار عائدًا ببطء نحو السهل، تاركًا المنزل العتيق خلفه، يزهر بهدوء في الربيع الأخير.

الفصل السابع

الحديقة المنسية

في اليوم التالي، عاد سامي إلى المنزل العتيق قبل أن تشرق الشمس البيضاء تمامًا.

كان الطريق أسهل الآن. النباتات الصغيرة التي ظهرت بالأمس كانت قد امتدت قليلاً، والأرض أكثر ليونة تحت قدميه. الهواء يحمل رائحة جديدة: تراب مبتل وزهور برية، خفيفة لكنها حاضرة. وصل إلى المنحدر، ورأى المنزل يقف كما تركه، هادئًا، صامتًا، محاطًا بالسور المنهار.

هذه المرة لم يدخل من الباب الأمامي.

دار حول المنزل باتجاه الخلف. هناك، خلف الجدار الغربي، وجد ما كان يبحث عنه دون أن يدري.

حديقة.

أو ما تبقى منها.

كانت مستطيلة الشكل، محاطة ببقايا سور حجري منخفض. في الوسط بقايا ممرات ضيقة من الحصى الأبيض، وعلى الجانبين صفوف من أحواض ترابية كانت يومًا مزروعة بعناية. الآن، في هذا الربيع المفاجئ، كانت الحديقة تستيقظ من جديد. أزهار صفراء وبيضاء وبنفسجية صغيرة تفتحت بين الشقوق، وبعض الشجيرات الميتة منذ عصور بدأت تخرج أوراقًا خضراء رقيقة من جذوعها السوداء.

سامي وقف عند المدخل الضيق للحديقة. شعر بشيء يشبه الدهشة الهادئة.

دخل ببطء. سار بين الأحواض. انحنى ولامس بتلة صفراء. كانت باردة وناعمة. ثم رأى شيئًا في زاوية الحديقة: لوحًا حجريًا صغيرًا مائلًا، محفورًا عليه سطر واحد بخط أنيق:

هنا نزرع ما نحب... وننتظر ما يأتي

جلس على حافة الحوض الحجري. وضع يديه على ركبتيه، ونظر حوله.

بدأ يتخيل من جديد.

رأى شيرين في صباح قديم، شعرها مربوط إلى الخلف، ترتدي ثوبًا بسيطًا، تسقي الأزهار بعلبة معدنية صغيرة. ورأى عادل يقف خلفها، يضع يديه على كتفيها، يضحك بهدوء وهو يقول شيئًا يجعلها تهز رأسها. سمع صوت طيور كانت موجودة يومًا، ورائحة خبز تخرج من النافذة الخلفية، وهمس رياح دافئة تحمل حبوب اللقاح.

فكر في الحب الذي كان يعيش هنا.

ليس الحب الدرامي الكبير الذي تصوره الأفلام القديمة، بل الحب اليومي البسيط: أن يسقي أحدهم الأزهار بينما ينتظر الآخر القهوة. أن يجلسا معًا في المساء على الدرجة الحجرية، يتحدثان عن أشياء صغيرة، عن طموحات متواضعة، عن غدٍ يبدو ممكنًا.

فكر في الطموح أيضًا.

ربما كان عادل يحلم بشيء أكبر من هذا المنزل الصغير. ربما كانت شيرين ترسم في دفترها صورًا لعوالم بعيدة. لكنهما اختارا أن يبقيا هنا، في هذه الحديقة، يزرعان ما يحبان، وينتظران ما يأتي.

سامي رفع رأسه. نظر إلى السماء الرمادية التي بدأت تنفرج قليلًا. الشمس البيضاء كانت أعلى الآن، ضوءها حادّ وبارد، لكنه يكفي ليجعل الأزهار الصفراء تتألق كأنما تشكر.

همس لنفسه:

«أنتم لم تذهبوا تمامًا...

بقيتم في هذه التربة».

شعر بقرار يتصلب داخل صدره.

لن يخبر أحدًا عن هذا المكان.

لا داليا، رغم أنها بدأت تقترب منه بطريقة مختلفة.

لا الدكتور ثروت الذي سيجنون فرحًا لو رأى هذه الأنواع النادرة.

لا الكاميرات التي ستحوّل الحديقة إلى مشهد مؤثر في البرنامج.

سيكون هذا سرّه. زاويته الخاصة في وسط الرحلة الأخيرة. المكان الذي يستطيع أن يأتي إليه كل صباح، يجلس بين الأزهار المنسية، ويتذكر أن الحياة كانت يومًا بسيطة... وجميلة... وممكنة.

نهض ببطء. سار بين الأحواض مرة أخرى. توقف عند اللوح الحجري، ولامس الحروف بإصبعه.

ثم ابتسم ابتسامة قصيرة، حقيقية هذه المرة.

وغادر الحديقة بهدوء، مغلقًا السور المنهار خلفه كأنما يغلق باب غرفة نوم عزيزة، وعاد إلى السهل حيث كانت الكاميرات لا تزال تدور، والأصوات لا تزال ترتفع، والربيع الأخير يستمر في الانتشار... بينما يحتفظ هو بسرّه الصغير في صدره.

الفصل الثامن

داليا

في اليوم السادس، اكتشف سامي أن السر لم يعد ملكه وحده.

كان جالسًا في الحديقة المنسية، ظهره إلى الجدار الحجري، يراقب الأزهار الصفراء وهي تتمايل تحت الضوء الأبيض الباهت، عندما سمع خطوات خفيفة خلف السور. لم يتحرك. عرف من الإيقاع الهادئ أنها هي.

ظهرت داليا عند المدخل الضيق. كانت ترتدي بدلة الفضاء الخفيفة بلون رمادي فاتح، شعرها الأسود مربوط بعناية، لكنها لم تكن تحمل كاميرا أو ميكروفونًا. نظرت إليه لحظة، ثم دخلت دون أن تطلب إذنًا.

جلست على الحافة الحجرية المقابلة له. صمتت دقيقة كاملة، تمسح بنظرها الحديقة والمنزل واللوح الحجري.

ثم قالت بصوت خفيض:

ـ عرفت أنك تأتي إلى هنا كل صباح.
اتبعتك بالأمس... ثم توقفت عند السور. لم أدخل.

سامي لم يظهر دهشة. فقط أومأ برأسه ببطء.

ـ والآن دخلتِ.

ـ نعم.
لأنني لم أعد أحتمل أن أراك تبتعد كل يوم وتعود بعينين... مختلفتين.

صمت آخر. الريح حركت الأوراق الرقيقة، وأرسلت رائحة الزهور نحوهما.

داليا لمست اللوح الحجري بإصبعها، قرأت السطر المحفور بصوت كأنها تهمس لنفسها:

ـ «هنا نزرع ما نحب... وننتظر ما يأتي».

ثم رفعت عينيها إليه:

ـ من هما شيرين وعادل؟

سامي نظر إلى الأزهار لحظة قبل أن يجيب:

ـ لا أعرف. فقط اسمان محفوران على الجدار.
لكنني أشعر أنهما عاشا هنا حياة... بسيطة. كافية.

داليا ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة.

ـ ولهذا تخفي المكان عن الجميع؟

عن الكاميرات؟ عني؟

ـ نعم.

لأن الكاميرات ستجعل منه مشهدًا.

وستجعل منهما قصة مؤثرة تُبثّ على الهواء.

وأنا لا أريد أن يصبح هذا المكان... عرضًا.

نظرت إليه طويلاً. ثم قالت بهدوء أعمق:

ـ أنا أفهم.

أكثر مما تظن.

سكتت قليلًا، ثم استطردت وهي تنظر إلى يديها:

ـ كل يوم أقف أمام الكاميرا وأقول كلمات جميلة عن «الوطن الأم» و«الوداع التاريخي» و«الربيع الأخير».

والناس في عوالم بعيدة يبكون وهم يشاهدون.

لكنني أشعر أحيانًا أنني أكذب.

ليس لأن الكلمات غير صحيحة... بل لأنها ناقصة.

لأن الحزن الحقيقي لا يُقال بهذه الطريقة.

سامي رفع رأسه ونظر إليها. لأول مرة منذ أيام رأى خلف عينيها الواسعتين شيئًا غير نظرة المذيعة المحترفة. شيئًا يشبه التعب... والحنين.

ـ لهذا جئتِ اليوم بدون كاميرا، قال بصوت أجش قليلًا.

ـ نعم.

أردت أن أجلس هنا... فقط.

دون أن أحتاج إلى إيجاد الجملة المناسبة.

ظلا صامتين وقتًا أطول هذه المرة. الشمس البيضاء ارتفعت قليلاً، والضوء أصبح أكثر حدة، لكنه لم يكن مزعجًا. الأزهار الصفراء بدت أكثر إشراقًا.

داليا قالت فجأة، بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ هل تشعر بالحنين أنت أيضًا؟

إلى مكان لم تعشه؟

سامي أجاب بعد لحظة:

ـ كل يوم.

كلما لمست هذه التربة، أو رأيت زهرة تتفتح، أو قرأت اسمين محفورين على جدار…

أشعر أن جزءًا مني كان هنا منذ زمن بعيد.

وأنني جئت متأخرًا جدًا للوداع.

داليا أومأت ببطء. ثم مدّت يدها ووضعتها على الحافة الحجرية بينه وبينها، قريبة من يده دون أن تلمسها.

ـ هل يمكنني أن آتي معك إلى هنا… أحيانًا؟

بدون كاميرات. بدون كلمات للبث.

سامي نظر إلى يدها، ثم إلى وجهها. ابتسم ابتسامة قصيرة، حقيقية.

ـ يمكنكِ.

بشرط أن نبقي المكان سرًّا.

ـ وعد، قالت بهدوء.

جلسا بعد ذلك وقتًا أطول. لم يتحدثا كثيرًا. اكتفيا بمراقبة الحديقة وهي تتنفس في ربيعها الأخير، وبالصمت الذي لم يعد ثقيلًا بينهما.

وعندما نهضا أخيرًا ليغادرا، أغلقت داليا السور المنهار خلفهما بعناية، كأنما تغلق باب غرفة مشتركة جديدة.

وسارا معًا في الطريق العائد إلى السهل، دون أن يقولا شيئًا، لكن المسافة بينهما كانت قد ضاقت قليلًا... بهدوء.

الفصل التاسع

أيام الصيف الأخيرة

بحلول اليوم العاشر، تغير الهواء.

لم يعد باردًا كما كان في الأيام الأولى. أصبح دافئًا بطريقة غريبة، جافة، كأنه يحمل في طياته وعدًا بنهاية قريبة. الشمس البيضاء ارتفعت أعلى في السماء، ضوءها أكثر حدة، وظلال الأطلال صارت أقصر وأشد سوادًا. الربيع الذي انفجر فجأة بدأ يذبل ببطء. الأوراق الرقيقة فقدت بعض اخضرارها، وبعض الأزهار الصفراء أسقطت بتلاتها على التربة كأنها تتعب.

سامي وداليا كانا يأتيان إلى المنزل العتيق كل صباح تقريبًا.

يمشيان معًا في الطريق الجانبي بعيدًا عن الكاميرات، يدخلان الحديقة المنسية، يجلسان على الحافة الحجرية نفسها. أحيانًا يتحدثان، وأحيانًا يكتفيان بالصمت. في أحد الصباحات جلسا يراقبان سحابة رقيقة تمر ببطء فوق السور المنهار.

قالت داليا وهي تنظر إلى السماء:

ـ هل تذكر شيئًا من طفولتك؟

شيئًا حقيقيًا... ليس من الأرشيفات.

سامي فكر قليلاً قبل أن يجيب:

ـ صوت والدي وهو يروي لي عن المحيطات.

كان يصف الأمواج كأنها تتنفس.

وكنت أغمض عيني وأتخيل الماء المالح على وجهي... رغم أنني لم أرَ محيطًا حقيقيًا في حياتي.

ابتسمت داليا ابتسامة صغيرة.

ـ أنا كنت أحلم بالغيوم.

الغيوم البيضاء الكثيفة التي تظهر في الصور القديمة.

كنت أرسمها في دفاتري وأنا صغيرة، وأتعجب كيف يمكن للسماء أن تكون بهذا البياض الناعم.

سكتا. الريح حركت الأوراق الذابلة، فسقطت بعضها على أيديهما.

في الأيام التالية، أصبح الروتين هادئًا ومألوفًا.

يستيقظان مبكرًا، يتخطيان الدائرة المضيئة حول السفينة، يسيران إلى المنزل. أحيانًا يدخلان الغرف الداخلية، يجلسان على الكرسي الوحيد أو على حافة السرير المنهار، ويتحدثان عن أشياء لا علاقة لها بالبرنامج: عن طعم القهوة في عوالم بعيدة، عن الموسيقى القديمة التي لا يزال البعض يحفظها، عن الخوف الخفي من أن ينسى البشر أصلهم تمامًا.

وفي أحد الأفواه، بينما كانا عائدين، واجههما أحد المخرجين الإعلاميين عند حافة السهل.

ـ كابتن... داليا... أين تذهبان كل صباح؟

الكاميرات تحتاجكما. الجمهور ينتظر لقطات أكثر عاطفية. الربيع بدأ يذبل، والوقت يضيق.

سامي توقف. نظر إلى الرجل بهدوء.

ـ نحن نؤدي عملنا، قال بصوت منخفض.
لكننا لسنا ملزمين أن نكون أمام الكاميرا كل ساعة.

المخرج ابتسم ابتسامة مهنية.

ـ أعرف. لكن هذا الحدث تاريخي.
كل لحظة مهمة. والجمهور... يحب أن يرى الوجوه المعروفة وهي تتأثر.

داليا تدخلت قبل أن يرد سامي:

ـ سنعود بعد قليل.
أعطونا ساعة أخرى فقط.

المخرج هز رأسه، غير راضٍ تمامًا، وانصرف. سامي وداليا تابعا السير في صمت حتى ابتعدا.

قالت داليا بعد قليل، وهي تنظر أمامها:

ـ سيكتشفون المكان عاجلاً أم آجلاً.
أو سيطلبون منا أن نتوقف عن الغياب.

سامي أجاب بصوت أجش:

ـ إذن سنستفيد من الوقت المتبقي.
كل صباح إضافي... ثمين.

في المساء نفسه، جلسا للمرة الأخيرة تقريبًا في الحديقة قبل أن يشتد الحر أكثر.

الأزهار كانت قد ذبلت أكثر. البتلات الصفراء متناثرة على التربة كبقايا ذكرى. الهواء أصبح أثقل، والظل أقصر.

سامي قال فجأة:

ـ هل تخافين من النهاية؟

ليس نهاية الأرض... بل نهاية هذا المكان بيننا.

داليا نظرت إليه طويلاً. ثم مدت يدها ووضعتها فوق يده هذه المرة، برفق.

ـ أخاف من أن نعود إلى السفينة...

ونصبح من جديد مجرد كابتن ومذيعة.

وأن ننسى كيف كان الصمت هنا مريحًا.

سامي قلب يده وأمسك بأصابعها بلطف.

ـ لن ننسى، قال بهدوء.

حتى لو ذبل كل شيء.

ظلا جالسين هكذا حتى غربت الشمس البيضاء خلف الأفق الرمادي، تاركة خلفها ضوءًا باهتًا يشبه الوداع المبكر.

وفي الطريق العائد، شعرا كلاهما أن أيام الصيف الأخيرة قد بدأت فعلاً...

وأن الوقت أصبح أضيق مما يبدو.

الفصل العاشر

الاقتراب

بحلول اليوم السادس عشر، لم يعد الهواء يُحتمل بسهولة.

الحرارة ارتفعت بشكل ملحوظ. الشمس البيضاء كانت أقرب الآن، ضوءها حادّ كشفرة، والظل الذي تلقيه الأطلال صار قصيرًا وكثيفًا. التربة بدأت تجف من جديد بعد

أيام الربيع القصيرة، والأزهار التي تفتحت بأعجوبة ذبلت معظمها. البتلات الصفراء والبيضاء تناثرت على الأرض كبقايا احتفال انتهى فجأة.

على متن السفينة، بدأت الاستعدادات للمغادرة.

الضابط الأول راجع الحسابات النهائية مع الكمبيوتر. المدار اللولبي للأرض كان يتسارع. خلال أسبوعين على الأكثر، ستدخل المنطقة الحرارية الحرجة، ولن يكون البقاء آمنًا. الإعلاميون بدأوا يصورون اللقطات الأخيرة: العلماء وهم يغلقون أجهزتهم، الفنانين وهم يودّعون الكاميرات، والطاقم وهو يجهز المعدات للرفع.

سامي وقف في غرفة القيادة صباح ذلك اليوم، يراقب الشاشات. القرص الأبيض للشمس بدا أكبر قليلًا مما كان عليه عند الهبوط. حوله، الكواكب الأخرى تبدو كالنقاط الباردة التي تنتظر دورها.

قال الضابط الأول بصوت هادئ:

ـ كابتن... الموعد النهائي للهبوط الأخير غدًا عند الفجر.

بعدها نغادر. المسار محسوب بدقة.

سامي أومأ برأسه دون أن يلتفت.

ـ أبلغ الطاقم.

وسنعود كلنا قبل غروب الشمس غدًا.

خرج من غرفة القيادة بخطوات بطيئة. في الممر الطويل، التقى بداليا. كانت ترتدي بدلة الفضاء نفسها، لكن وجهها بدا أكثر إرهاقًا من المعتاد.

قالت بصوت خفيض:

ـ سمعت.

نغادر بعد غد.

ـ نعم.

هل تريدين أن تأتي معي... الآن؟

نظرت إليه لحظة، ثم أومأت.

خرجا معًا من السفينة. الحرارة لسعت وجهيهما فور خروجهما. الهواء جاف، ثقيل، يحمل رائحة تراب محترق خفيفة. سارا في الطريق المألوف إلى المنزل العتيق، لكن المشي أصبح أبطأ. النباتات التي كانت خضراء قبل أيام صارت بنية وذابلة. الحديقة المنسية بدت شبه فارغة الآن، إلا من بعض الأزهار العنيدة التي ما زالت تقاوم.

دخلا المنزل للمرة الأخيرة.

الغرف كانت أشد حرارة مما كانت عليه. الغبار تحرك تحت أقدامهما. سامي وقف أمام اللوحة المحفورة:

شيرين وعادل

لمس الحروف بإصبعه كالعادة. ثم سار إلى الحديقة الخلفية. جلسا على الحافة الحجرية نفسها التي جلسا عليها كل تلك الصباحات.

داليا قالت بعد صمت طويل:

ـ أشعر أن المكان يودعنا هو أيضًا.

كأنه يعرف أننا لن نعود.

سامي نظر إلى اللوح الحجري الذي كتب عليه «هنا نزرع ما نحب... وننتظر ما يأتي». البتلات المتساقطة غطت جزءًا منه.

ـ ربما كانوا يعرفون منذ البداية أن كل شيء مؤقت، قال بصوت أجش.

حتى الحب. حتى المنزل. حتى الربيع.

أمسكت داليا بيده هذه المرة دون تردد. أصابعها كانت دافئة رغم الحر.

ـ هل ستفتقده؟

هذا المكان؟

سامي أجاب بعد لحظة:

ـ سأحمله معي.

مثلما حملت شيرين وعادل شيئًا من حياتهما في هذه الجدران.

لن يختفي تمامًا.

ظلا جالسين حتى بدأ الضوء يتغير. الشمس البيضاء مالت نحو الأفق، وامتدت الظلال الطويلة عبر الحديقة الذابلة. الهواء أصبح أثقل، وكأن الأرض نفسها تتنفس بصعوبة.

نهضا أخيرًا. وقفا أمام الباب المتصدع لحظة طويلة.

سامي وضع يده على الخشب البارد الرطب، كأنه يودع صديقًا قديمًا. داليا فعلت الشيء نفسه.

ثم أغلقا الباب بعناية، وخرجا، وأغلقا السور المنهار خلفهما للمرة الأخيرة.

في الطريق العائد، شعرا كلاهما أن الاقتراب الحقيقي قد بدأ.

ليس اقتراب الأرض من الشمس فقط...

بل اقتراب الرحيل من كل ما كان هادئًا وممكنًا في هذه الزاوية الصغيرة من الوطن الميت.

الفصل الحادي عشر

اللحظات الأخيرة

في فجر اليوم السابع عشر، قبل أن يبدأ الطاقم الاستعدادات النهائية، عاد سامي وداليا إلى المنزل العتيق للمرة الأخيرة حقًا.

الحرارة كانت أشد. الهواء جاف يلسعهما كأنياب خفيفة، والتربة تحت أقدامهما صارت ساخنة حتى من خلال الحذاء. الربيع الأخير كان قد انتهى تقريبًا. الحديقة المنسية بدت الآن كصفحة قديمة طُويت: بتلات ذابلة، أوراق بنية، وSor منهار يحيط بصمت ثقيل.

دخلا دون أن يتحدثا.

جلسا في الغرفة الأولى، على الكرسي الوحيد وعلى حافة الطاولة. الضوء الأبيض تسرب من النوافذ المكسورة ورسم مربعات باهتة على الأرضية. الغبار تحرك قليلاً مع أنفاسهما.

داليا كانت أول من تكلم، بصوت خفيض كأنه يأتي من مكان بعيد:

ـ هل تظن أنهما كانا سعيدين؟

شيرين وعادل.

سامي نظر إلى اللوحة المحفورة على الجدار. الحروف بدت أعمق في الضوء الحاد.

ـ أظن أنهما كانا... حاضرين.

يعيشان يومهما كما هو. يحبان ما يملكان. ينتظران ما يأتي دون أن يطمعا في أكثر مما تستطيع الأرض أن تعطيهما.

صمت قليلاً، ثم أضاف:

ـ وهذا ربما أجمل ما يمكن أن يصل إليه إنسان.

داليا أمسكت بيده. أصابعها كانت دافئة، ومتماسكة.

ـ وأنا... أخاف أن ننسى.

بعد أن نغادر. بعد أن تعود السفينة إلى عوالمها البعيدة.

أخاف أن يصبح هذا المكان مجرد ذكرى باهتة، أو لقطة في أرشيف البرنامج.

وأن نعود إلى حياتنا السابقة كأن شيئًا لم يكن.

سامي قلب يده وأمسك بأصابعها بقوة ألطف.

ـ الذاكرة لا تموت بهذه السهولة.

حتى لو نسي العالم كله، سيبقى شيء هنا... داخلنا.

مثلما بقي شيء من شيرين وعادل في هذه الجدران، وفي هذه التربة، وفي الاسمين المحفورين.

نظرت إليه بعينين لامعتين.

ـ وماذا عن الحب؟

هل تظن أنه يكفي ليحمل الإنسان عبر كل هذا الفراغ؟

سامي ابتسم ابتسامة قصيرة، حزينة، وصادقة.

ـ الحب البسيط يكفي.

الحب الذي لا يحتاج إلى كاميرات أو كلمات كبيرة.

الحب الذي يجلس معك في صمت، ويمشي معك في طريق ترابي، ويمسك يدك في اللحظة التي تعرفان فيها أن كل شيء سينتهي.

صمتا وقتًا طويلاً. الريح دخلت من النافذة، حركت الغبار، وأرسلت رائحة تراب ساخن وزهور ذابلة.

داليا قالت بعد قليل، بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ أشعر أنني أصبحت أكثر إنسانية هنا.

أقل مذيعة... وأكثر امرأة تودع شيئًا ثمينًا.

سامي أجاب بهدوء:

ـ وأنا أصبحت أقل كابتن... وأكثر رجلًا يتذكر أنه ينتمي إلى هذه التربة، حتى لو لم يولد عليها.

نهضا معًا. سارا ببطء عبر الغرف. لمسا الجدران، والطاولة، والسرير المنهار، واللوح الحجري في الحديقة. عند الباب الأمامي، توقف سامي ووضع راحته على الخشب المتصدع.

ـ شكرًا، همس.

على كل شيء.

داليا وضعت يدها فوق يده.

ـ شكرًا... لأنك أريتني إياه.

خرجا. أغلقا الباب بعناية فائقة، كأنما يغلقان غرفة نوم شخصين عزيزين ينامان إلى الأبد. ثم أغلقا السور المنهار للمرة الأخيرة، ووقفا لحظة ينظران إلى المنزل وهو يقف وحيدًا تحت الشمس البيضاء الحادة.

ثم استدارا، وسارا معًا في الطريق العائد إلى السفينة.

خلفهما، كان المنزل العتيق يودع آخر زائريه في صمت،

بينما الأرض كلها كانت تقترب أكثر فأكثر من حضن الشمس.

الفصل الثاني عشر

المرثية

في اليوم التاسع عشر، كانت السفينة «أمنحوتب» قد اتخذت مدارها الآمن الأخير.

الكل وقف في قاعة المراقبة الكبرى. الشاشات العريضة تعرض الصورة الحية: الأرض، الكرة الرمادية التي كانت يومًا زرقاء، تقترب ببطء لولبي من الشمس البيضاء. الحرارة على السطح كانت قد بلغت مستويات قاتلة منذ ساعات. الغلاف الجوي بدأ يتبخر، والتربة تتحول إلى وهج باهت.

الإعلاميون كانوا جاهزين. الكاميرات تدور. المعلقون يهمسون بتعليمات أخيرة. الدكتور ثروت يقف صامتًا، عيناه لا تفارقان الشاشة. الضابط الأول يراجع الأرقام بهدوء عسكري.

سامي وقف في الصف الأمامي، إلى جانب داليا. يداها كانتا متشابكتين خلف ظهرهما، بعيدًا عن أعين الكاميرات.

الصوت الرسمي انطلق من مكبرات القاعة:

ـ نبدأ الآن البث المباشر الأخير...

الرحلة النهائية لكوكب الأرض نحو الشمس.

داليا رفعت رأسها. نظرت إلى سامي لحظة، ثم تقدمت خطوة نحو المنصة الرئيسية. الجميع انتظروا كلمتها المعتادة، صوتها العميق الذي يعرفه بلايين المشاهدين.

لكنها قالت شيئًا مختلفًا تمامًا.

بصوت هادئ، واضح، وبدون أي زخرفة:

ـ أرجو إغلاق كل الأصوات.

كل الميكروفونات.

كل التعليقات.

صمت مفاجئ ملأ القاعة. التقنيون تبادلوا النظرات، ثم امتثلوا. الشاشات استمرت في العرض، لكن الصوت انقطع تمامًا.

داليا لم تتكلم بعد ذلك.

وقفت أمام الشاشة الكبرى، يداها إلى جانبها، عيناها مثبتتان على الصورة. الأرض كانت تذوب ببطء في الوهج الأبيض. القارات تختفي، المحيطات المتجمدة تتحول إلى بخار لامع، والظلال الأخيرة تطول ثم تذوب.

لم تقل كلمة واحدة.

اكتفت بأن تنظر.

الغرفة كلها صارت صامتة معها. حتى أنفاس الحاضرين بدت مكتومة. الكاميرات استمرت في الدوران، تنقل هذا الصمت المهيب إلى عوالم المجرة كلها. بلايين العيون كانت تشاهد الآن امرأة واحدة تقف أمام نهاية كوكب... دون أن تنطق.

سامي شعر بشيء يتحرك في صدره. شيء أثقل من الحزن. شيء يشبه الامتنان العميق.

مرت الدقائق. الأرض صارت قرصًا صغيرًا لامعًا يبتلعه الوهج تدريجيًا. ثم صارت نقطة. ثم... اختفت.

لم يبقَ سوى الشمس البيضاء، باردة وقاتلة وجميلة بطريقة مرعبة.

داليا بقيت واقفة لحظة أخرى. ثم أدارت رأسها ببطء نحو سامي. عيناها كانتا لامعتين، لكن دموعها لم تسقط.

اقترب منها. وقف إلى جانبها أمام الشاشة الفارغة تقريبًا.

همس، بصوت لا يسمعه إلا هي:

ـ شكرًا يا داليا...

لقد قدمتِ أروع مرثية لكوكب الأرض.

ابتسمت ابتسامة صغيرة، متعبة، وصادقة. أمسكت بيده هذه المرة أمام الجميع، دون أن تخفي.

وظلا واقفين هكذا، في الصمت الذي اختارا أن يكون هو الكلمة الأخيرة،

بينما السفينة «أمنحوتب» بدأت تبتعد ببطء عن المنظومة المحتضرة،

حاملة معها آخر من شاهدوا الوطن وهو يذهب إلى الشمس.

الفصل الثالث عشر

بعد الرحيل

مرت سنوات.

في عالم بعيد من عوالم الإمبراطورية الخارجية، حيث السماء تميل إلى البنفسجي الفاتح والرياح تحمل رائحة محيطات مالحة مختلفة، كان سامي زكريا يجلس على شرفة منزل صغير يطل على سهل أخضر. إلى جانبه جلست داليا، شعرها قد ظهرت فيه خيوط فضية خفيفة، وعيناها ما زالتا واسعتين وهادئتين.

أمامهما امتدت أرض حية: أشجار حقيقية، طيور غير مألوفة، وسحب بيضاء ناعمة تتحرك ببطء. كل شيء كان دافئًا وممكنًا. لكنهما لم يكونا يتحدثان عن هذا العالم كثيرًا.

في ذلك المساء، بينما كانت الشمس المحلية تميل نحو الغروب بلون برتقالي دافئ، قالت داليا فجأة، بصوت خفيض كأنه يأتي من زمن آخر:

ـ هل تذكر الحديقة؟

الأزهار الصفراء... واللوح الحجري.

سامي أومأ ببطء. ابتسم الابتسامة القصيرة نفسها التي عرفها منها منذ سنوات.

ـ أذكر.

وأتذكر كيف أغلقتِ السور خلفنا في المرة الأخيرة... كأنكِ تغلقين باب غرفة نوم.

صمتا قليلاً. الريح حملت صوت أوراق حقيقية هذه المرة.

داليا مدت يدها ووضعها فوق يده على حاجز الشرفة.

ـ أحيانًا أحلم بهما.
شيرين وعادل.
Downstream كأنهما يجلسان معنا هنا، يبتسمان، ولا يقولان شيئًا.

سامي نظر إلى الأفق البنفسجي.

ـ هما لم يختفيا.
ولا الأرض.
صارت أسطورة حية داخلنا.
كلما رأينا سحابة بيضاء، أو لمسنا تربة دافئة، أو جلسنا في صمت مريح... نتذكر.

ابتسمت داليا ابتسامة أعمق هذه المرة.

ـ إذن لم نذهب إلى الجنازة فقط.
ذهبنا... وعدنا حاملين شيئًا منها.

سامي أمسك بأصابعها.

ـ نعم.
وهذا يكفي.

ظلا جالسين على الشرفة حتى غربت الشمس المحلية، وظهر نجوم بعيدة في السماء البنفسجية. لم يحتاجا إلى كلمات أكثر.

في داخلهما، كانت الأرض ما زالت تدور...
زرقاء مرة أخرى،
في الذاكرة فقط،
لكنها حية.
وإلى الأبد.